دلائل الإعجاز "للجرجاني"

بقلم الدكتور أحمد الحوفي

لمحة الى عبد القاهر :

أما المؤلف فهو عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن الجرجانى ، نسبة الى مدينة جرجان ،بين طبرستان وخراسان .

وقد وصفها ياقوت بأنها أكبر مدينة بتلك النواحى ، ووصف أهلها بأنهم أحسن من أهل طبرستان وقارا ، وأكثر منهم مروءة ويسارا وبأنهم أصحاب أناة وأخلاق محمودة ، وقد خرج من بينهم كثير من العلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين .

وكانت جرجان أيام مولد عبد القاهرة امارة يحكمها شمس المعالى قابوس بن وشمكير أحد أمراء الدولة الزيادية التى انتهى حكمها سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) .

ووقد كان شمس المعالى الديلمى الأصل بارعا فى اللغة العربية وأدبها ، وبارعا فى اللغة الفارسية وينظم الشعر بهما ، وله رسائل عربية بليغة .

ثم آلت جرجان منذ سنة ٤٣٣ هـ الى السلاجقة وقد توفى عبد القاهر وهى فى حوزتهم . واذا كان تاريخه قد أنبأنا بسنة وفاته ٧٤١ هـ (١٠٧٨م) فانه لم يذكر سنة ميلاده ، بل أغفلها كما أغفل ميلاد كثير من قبله ومن بعده .

ولقد كان عبد القاهر مشغوفا بمناهل العلم، ولاسيما كتب النحو والأدب ، وكان شافعى المذهب متكلما على أصول الأشعرى المتوفى سنة ٣٣٣ هـ

ولعل السبب فى شغفه بالعلم أن الفترة التى عاش فيها كانت فترة صراع سياسى وحروب بين الطامعين فى الملك والحكم ، فآثر كثير من العلماء والأدباء أن ينصرف الى الثقافة ، وأن ينهل من الينابيع التى تفجرت من القرون الأربعة التى سبقته، فجرت منها تيارات عربية متنوعة ، وتيارات اسلامية تمثلها المذاهب الأربعة وغيرها ، ويمثلها علماء الكلام من سنية ومعتزلة وأشاعرة ورافضة ،وتسرى بها تيارات أجنبية فارسية ويونانية وهندية .

وأما أساتذته الذين درس عليهم وتلقى منهم شفاها فأعظمهم أثرا فى نفسه أبو الحسين محمد بن

---

* الطبعة الثانية بمطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ فى ٤٢٨ صفحة بتصحيح وتعليق الشيخ محمد عبده والشيخ محمد الشنقيطى والسيد محمد رشيد رضا .

الحسن الفارسى النحوى اللغوى نزيل جرجان .

وأما الذين تتلمذ لكتبهم فهم كثير ، أقربهم الى نفسه أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى مؤلف (الوساطة بين المتنبى وخصومه) ، وقد كان عبد القاهر مزهوا به ، معتزا بالانتماء اليه على أنه نقل فى كتابين عن الجاحظ وأبى العباس ثعلب مؤلف كتاب الفصيح ، وأبى هلال العسكرى مؤلف (الصناعتين) والمرزبانى مؤلف (معجم الشعراء) وسيبويه مؤلف (الكتاب) وقدامة بن جعفر مؤلف (نقد الشعر) وابن قتيبة مؤلف (عيون الأخبار) وغيرهم . كذلك قرأ أشعار البحترى وأبى تمام والمتنبى ، واختار منها .

لكنه قليل النقل بصفة عامة ، وذو شخصية متميزة مستقلة ، لأنه لاينتقل الا ما يعضد فكرته فاذا كان لايؤديها فنده .

والطابع العام لثقافته أنها نحوية لغوية أدبية دينية ، وأبرز سماتها النحو ، لكنه تفرد فى النحاة الكبار بأنه أسس على النحو نظريته البلاغية فى النظم .

ولعبد القاهر انتاج كثير :

منه فى النحو :

١ ــ شرح مفصل على كتاب الايضاح الذى ألفه أبو على الفارسى جاوز الثلاثين مجلدا ،سماه (المغنى)

٢ ــ ثم اختصره فى ثلاثة مجلدات ، وسماه (المختصر)

٣ ــ التكملة فى النحو

٤ ــ الايجاز ، اختصر فيه الايضاح

٥ ــ العوامل المئة فى النحو ، وقد شرحه كثير من العلماء

٦ ــ الجمل،وهو شرح للعوامل المئة ، ويسمى الجرجانية ، شرحه كثير من العلماء

٧ ــ التلخيص ، شرح فيه كتاب الجمل

٨ ــ العمدة فى التصريف

٩ ــ العروض

ومنه فى الأدب (المختار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام) اختار فيه أجود ماقالوه .

وله فى الدراسات البلاغية والدينية عدة مؤلفات، منها :

١ ــ المعتضد ، وهو شرح لاعجاز القرآن الذى ألفه أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦ هـ

٢ ــ الرسالة الثانية فى الاعجاز

٣ ــ دلائل الاعجاز

٤ ــ أسرار البلاغة

٥ ــ شرح سورة الفاتحة

وقد كان الى هذا ينظم الشعر على قلة ،ولكن أكثر مانظمه لايرقى الى مرتبة الجودة . ذاع صيته فتوافد عليه الطلاب بجرجان ، يدرسون عليه مؤلفاته ، منهم الشجرى . لكن هذه المكانة العلمية لم تكفل له رغد الحياة ، فسخط حظه ، كما نجد فى قوله :

كبر على العلم لاترمه ومل الى الجهل ميل هائم
وعش حمارا تعش سعيدا فالسعد فى طالع البهائم

ولقد كان عبد القادر متدينا ، ورعا ، حتى ان لصا اقتحم عليه داره وهو يصلى ، وسرق ما وجد ، وعبد القاهر يراه ، فلم يقطع صلاته ،وكان راضيا بحظه ساخطا حينا ، وكان صريحا جريئا لايبالىء ، كما يتبين من قوله :

خلع الناس اهابا وتبدوا فى اهاب
وأرى نفسى تأبى غير ما كان ثيابى

ويحسن أن أنقل هنا وصف أبى الحسن

الباخرزى له فى كتابه (دمية القصر وعصرة أهل العصر) فهو وصف ينبىء عن تقدير واعجاب وأسف على أنه لم يسعد بلقائه مع قرب المكان : « اتفقت على امامته الألسنة ، وتجملت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة ، وأثنى عليه طيب العناصر ، وثنيت به عقود الخناصر ، فهو فرد فى علمه الغزير ، لا بل هو العلم الفرد فى الأئمة المشاهير . ولست فيما فاتنى من كريم مشاهدته ، واشتيار — جنى — لذيذ الشهد من مذاكرته ، أيام أسعدتنى الأيام منه بدنو الدار ، ولف أطناب الخيمتين قرب الجوار ، الا كمن ودع الماء والخضرة ، وتدرع الشعثة والغبرة »

دلائل الاعجاز :

— ١ —

عنى قبل عبد القاهر بعض العلماء باعجاز القرآن ، كالنظام (٢٢١ هـ ٨٣٥ م) والرمانى (٣٨٦ هـ ٩٩٦م) والخطابى (٣٨٨ هـ ٩٩٨ م) والباقلانى (٤٠٣ هـ ١٠١٢ م) ، فلماجاء عبد القاهر اتفق مع بعضهم فى بعض ما رآه ، وخالفهم فى كثير مما ذهبوا اليه .

١ — فالنظام ذهب الى أن القرآن معجزة بالصرفة ، مستدلا بأن صرف الله العرب عن الاتيان بمثله دليل على أنه من عنده . فلم يرتض عبد القاهر هذا الرأى ، لأنه يفضى الى أن القرآن من عند الله حقيقة ، لكنه ينفى أن يكون معجزا بذاته ، ودان عبد القاهر بأن اعجاز القرآن فى نظمه ، ونقل عن الحاحظ قوله فى الرد على أستاذه النظام : لو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ،ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها .

٢ — والرمانى مؤلف (النكت فى اعجاز القرآن) قال ان الاعجاز راجع الى الصرفة والى ستة أسباب أخرى غير الصرفة ، هى ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة ، وفصل القول فى كل هذه الأسباب .

فلم يوافقه عبد القاهر الا على البلاغة .

٣ — وأما الخطابى فقد رفض القول بالصرفة فى رسالته فى اعجاز القرآن ، واستبعد الأخبار بالمستقبل، ورأى أن سر الاعجاز هو البلاغة المحققة فى أنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظام من التأليف ، للتعبير عن أصح المعانى ، ولهذا كان أعظم الكلام تأثيرا فى النفوس .

وقد وافقه عبد القاهر .

٤ — وأما البلاقلانى مؤلف (اعجاز القرآن) فانه نفى القول بالصرفة ، وذهب الى أن اعجاز القرآن ناشىء عن اخباره بالغيوب ، وأن النبى عليه الصلاة والسلام كان أميا ، ومع أميته جاء بأنباء عن الأمور العظام التى حدثت منذ آدم الى البعثة، وأنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد المعجز .

وقد وافقه عبد القاهر على أن سبب الاعجاز هو النظم البديع والبلاغة المتناهية ، وخالفه فيما عدا ذلك .

وله فى هذا مقال مفصل فى (الرسالة الشافية) موجزه أن الأخبار بالغيوب لايصح أن تكون سبب الاعجاز ، لأن هذه الاخبار فى بعض السور دون بعضها الآخر ، وأن الأخبار بالماضى لا ينهض سببا لأنه فى بعض السور لا فى كلها .

واستبعد أن يكون السر فى الاعجاز التعبير

عن المعانى الجـــديدة فى التشريع ، لأن التشريع لايشمل جميع السور ، ورفض أن يكون التشبيه والاستعارة والكناية هى السبب، لأنهاألوان بلاغية فى آيات معينة .

ولهذا بنى رأيه فى الاعجــاز على النظم ، لأنه محقق فى كل آية من كل سورة .

ثم رد على شبه قد تعرض للباحث ، منها أنه من الجائز أن يقال أن الرسول عليه الصلاة والســلام كان متفردا فى قومه ببيانه المعجز ، فيكون القرآن من عمله ، فرد عبد القاهر بأن الذى قد يذهب الى هذا الرأى انما أتى من سوء تدبره لما يسمع ، ومن تسرعه الى الاعتراض قبل العلم بالدليل ، وذلك أن الشرط فى المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها الى حيث يبهر ويقهر ، حتى تنقطع الأطمــاع عن المعارضة ، ولم يكن فى العصر السابق لنـــزول القرآن من امتاز على قومه ذلك الامتياز ، وكذلك الحال فى العصور اللاحقة ، وقد يكون شــخص أشعر أهل زمانه أو أحذقهم فى صناعة وأبهــرهم فى عمل ، ولكن ذلك ليس من الاعجاز ، بل المعجز ماكان فوق قوى البشر وقدرهم .

ورد على دعوى الصرفة بأن العرب لو أدركوا أنهم عجزوا بعد قدرة لقالوا للرسول لقد كنـــا نستطيع ما تطالبنا به قبل مجيئك بالقرآن ،ولكنك سحرتنا ، وحلت بما جئت به بيننا وبين قدرتنا على معارضته ، ولكن لم يرد عنهم قـــول فى هـذا المعنى .

— ٢ —

لهذا وضع عبد القاهر لكتابه (دلائل الاعجاز) محورا يدور كله حوله ، وذلك أن البلاغة تتحقق فى نظم الكلام ، أى أسلوبه أو تعبيره ، وأن هــذا النظم ماهو الا صـــلات الكلمات بعضها ببعض ، ونسق بعضها وراء بعض نسقاخاصا خاضعا لقواعد النحو ، فالنظم اذا هـــو التعبير عن المعنى تعبيرا يقتضيه المعنى وترتضيه القواعد النحوية .

١ — وقد دلل على نظريته بدراســـة تطبيقية لموضوعات من علم المعانى كالذكر والحـــذف ، والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير ، والفصل والوصل ، ليثبت أن بلاغة النظم هى نسق الألفاظ وفقا للمعنى على نحو معين .

ثم درس موضوعات من علم البيان هى التشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية والحقيقة والمجــاز ليؤكد أن البلاغة راجعة الى المعنى المعبـــر عنه بالألفاظ ، لا الى الألفاظ نفسها ولا الى الألفاظ وحدها .

ثم عرض من علم البديع للسجع والجناس ،فبين أن جمالها راجع الى المعنى لا الى اللفظ . فالبلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وماشاكلها مما يعبر به عن امتياز بعض القائلين على بعض ليست الاحسن الدلالة وتمامها ، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلب .

ولا وجه لحسن الدلالة وتبرجها غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختـــار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنـــه وأتم له .

ومعنى هذا أن عبد القاهر يرى البلاغة فى المعنى واللفظ معا ، لأنها حسن دلالة الكلام على معناه بصورة رائعة من الأسلوب .

واذا كانت البلاغة هى سر الاعجاز ، فان سر البلاغة هو النظم .

وليس النظم الا توخى معانى النحو وأحكامه

فيما بين الكلام ، وهو السبب فى المحاسن من استعارة وكناية وتمثيل ومجاز وايجاز ، لأنها من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ،فلا يتصور أن تدخل الاستعارة فعلا أو اسما وهو مفرد لم يرتبط بغيره .

٢ — ثم فصل هذه الفكرة فقال ان البلاغة لا تكون فى الألفاظ المفردة ، وان الاعجاز محال أن يقع فى ألفاظ لم يسلكها نظم ، لأن الألفاظ المفردة هى اللغة ، وهى معروفة للعرب ، وليست ألفاظ القرآن المفردة ممتازة بأوصاف لم تكن لها قبل نزول القرآن بها .

وهذه الألفاظ لها معان حقيقية لم يحدث فيها تجدد ، فان الحمد والرب والعالمين والملك واليوم والدين معانيها بعد نزول القرآن هى معانيها قبل نزوله .

فاذا ما انتظم التعبير المفردات كان التفاضل، بأن تكون كلمة مأنوسة وأخرى غريبة ، وبأن تكون الكلمة ملائمة لموضعها أو غير ملائمة .

وساق عبد القاهر مثالا لهذا قوله تعالى : «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » فقال ان سبب الاعجاز راجع هنا الى ارتباط الكلمات بعضها ببعض ، فان شككت فتأمل هل ترى لفظة لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟

ان العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ،وفى أن النداء بيا دون أى ، ثم اضافة الماء الى الكاف دون أن يقول ابلعى الماء ،ثم فى أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها بنداء السماء وأمرها بما يخصها ، ثم فى أن قال (وغيض الماء) فجاء الفعل مبنيا للمجهول للدلالة على أنه لم يغض الا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم فى تأكيد ذلك بقوله تعالى « وقضى الأمر » ثم ذكر ماهو فائدة هذه الأمور، وهو (واستوت على الجودى) ثم اضمار السفينة للتفخيم ، ثم فى مقابلة «قيل» فى ختام الآية بقيل فى أولها .

افترى لشىء من هذه الخصائص الرائعة المعجزة تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب ؟

ثم انك تجد الكلمة تؤنسك فى موضع ، وهى بعينها تثقل عليك فى آخر ، فكلمة الأخدع جميلة فى قول الصمة بن عبد الله :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى
وجعت من الاصغاء ليتا واخدعا

الليت : صفحة العنق . الأخدع : عرق فى جانب العنق الأيمن وآخر فى الأيسر .

وثقيلة فى قول أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعيك فقد
أضججت هذا الأنام من خرقاك

٣ — وعبد القاهر حريص على أن يفهم مراده من النظم بأنه الأسلوب المعبر عن المعانى فى ترتيب ملائم لترتيبها فى النفس ، فهو كالنسيج والصياغة والوشى وأشباهها مما يوجب الملاءمة بين الأجزاء.

ومعنى هذا أنه لابد فى النظم من تناسق دلالة الألفاظ وتلاقى معانيها على الوجه الذى اقتضاه الفعل واستدعاه ترتيب المعانى فى النفس .

واذا كان النظم تابعا لترتيب المعانى فى النفس فان فضيلة الكلام راجعة الى معانيه قبل أن ترجع الى ألفاظه .

وانك لاتجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا

وخطؤه ان كان خطأ الى النظم الا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه أو أزيل عن موضعه واستعمل فى غير ماينبغى له ، ومثل لهذا يقول الفرزدق فى مدح ابراهيم بن هشام :

وما مثله فى الناس الا مملكا
أبو أمه حى أبوه يقاربه

(يريد أنه ليس فى الناس انسان يماثل الممدوح فى فضائله الا ملك أبو أمه أبو الممدوح ، وهو ابن أخته هشام بن عبد الملك ، لأن الممدوح خاله) فقال انه فاسد النظم سىء التأليف ، لأن الشاعر لم يتبع معانى النحو فى نسق كلماته ، بل عمد الى التقديم والتأخير والحذف والاضمار ، وارتكب مالا تسوغه قواعد النحو .

٤ — وفى رأى عبد القاهر أنه لابد للباحث المتذوق من الكشف عن أسرار النظم ، وعن وجوه دلالته ، لأن المعرفة الاجمالية غير كافية ، فليس يغنيك أن تعلم أن النظم يفوق النظم ، وأن النسج يفوق النسج ، ثم يزداد الفضل ويترقى حتى ينتهى الى غاية تنقطع الأطماع دونها . كذلك لايكفيك فى علم الفصاحة أن تضع لها قياسا ما ، وأن تصفها وصفا مجملا ، فانك محتاج الى تفصيل القول ، والى وضع اليد على الخصائص التى فى نظم الكلام ، وعدها واحدة واحدة ، وتسميتها ووصفها ، لتكون معرفتك بها معرفة الصانع الحاذق الذى يعرف كل خيط فى النسيج ، وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب ، وكل آجرة من الآجر الذى فى البناء البديع ، فان لكل جمال علة معقولة ، ولكل حسن دليل على استحسانه .

ويخطىء الذين يزعمون أنه لاسبيل الى معرفة العلة فى الجمال ، ويكتفون بقولهم فى سبب الحسن انه التقديم أو التنكير أو الوصل أو الفصل .

ثم يستدرك عبد القاهر فيستثنى بعض الحالات ، فى غير يأس من الوصول الى كنه الجمال فيمابعد ، فقد يأتى بعدنا من يعرف السر الذى عجزنا عن معرفته .

لهذا يرى أنه من الخطل القول بأنه اذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر فى الكل ، كما أنه من الخطأ الاكتفاء بمعرفة العلة والسبب فيما يمكن معرفته فيه ليكون شاهدا فيما لم يعرف ، لأن هذا سد لباب المعرفة ، وصد عن الفهم والتفهم ، وايثار للكسل والهوينى .

واستشهد بقول الجاحظ فى هذا المقام أنه جرى على ألسنة الناس كلام له مضرة شديدة ، وثمرة مرة ، وهو قولهم ان الأول لم يدع للآخر شيئا فلو أن علماء كل عصر منذ جرت هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

— ٣ —

عرض عبد القاهر لموضوعات أخرى متصلة بالنظم والبلاغة ، مثل المعانى الشعرية ، والموازنات بين الشعراء ، وأخذ بعضهم من بعض ، والذوق البلاغى ، والرد على دعوى الصرفة ، والاشادة بالشعر ، والاستشهاد به ، لأنه مظهر البلاغة ، ولأنه ديوان العرب وعنوان الأدب ، وفند شبه الكارهين له .

وهذه أمثلة مما عرضه :

١ — التقديم والتأخير

لم يرتض ماقاله سابقوه من أن التقديم للعناية بالمقدم أو للاهتمام به أو للتوسعة على الشاعر والكاتب فى التقفية والسجع ، بغير تعليل لهذا كله .

وعجب من مذهبهم فى هذا وفى نظائره ، وسألهم: من أين كان نظم أشرف من نظم ، وبم عظم التفاوت واشتد التباين ، وترقى الأمر الى الاعجاز ؟

ثم درس التقديم والتأخير دراسة مفصلة .

منها فى الاستفهام بالهمزة أنك اذا قلت :أفعلت؟ كان الشك فى الفعل نفسه ، وأنت تقصد من الاستفهام أن تعرف وجود الفعل ، فاذا بدأت بالاسم فقلت : أأنت فعلت ؟ كان الشك فى الفاعل من هو، وكان التردد فيه .

وتقول : أبنيت الدار التى كنت على أن تبنيها؟ أقلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ تبدأ فى هذا ونحوه بالفعل ، لأن السؤال عن الفعل نفسه وتقول: أأنت بنيت هذه الدار ؟ أأنت قلت هذا الشعر ؟ أأنت كتبت هذا الكتاب ؟ فتبدأ فى ذلك كله بالاسم لأنك لم تشك فى حدوث الفعل ، فقد أشرت الى الدار مبنية والى الشعر مقولا والى الكتاب مكتوبا ، وانما شككت فى الفاعل من هو .

فلو قلت : أأنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ، خرجت من كلام الناس .

وهناعرض لقوله تعالى على لسان قوم ابراهيم عليه السلام : «أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم ؟ » فقال ان الهمزة للتقرير ، وهم لم يريدوا أن يقر لهم ابراهيم بأنه قد حدث تكسير الأصنام ، بل أن يقر بأنه هو الذى كسرها ، ولذا كان الرد بقوله « بل فعله كبيرهم هذا » فالهمزة هنا تقرير بأن الفعل وقع ، والغرض منها انكارهم لما وقع وتوبيخ فاعله .

ومن أمثلة التقديم فى النفى أنك اذا قلت :مافعلت كنت قد نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول ،واذا قلت : ما أنا فعلت هذا ، كنت قد نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول وهكذا يستمر عبد القاهر فى الكشف عن الوجوه البلاغية فى التقديم والتأخير متخذا الأمثلة من الشعر البليغ ومن القرآن الكريم .

٢ ــ الحذف :

فى رأيه أن الحذف باب لطيف المأخذ ، شبيه بالسحر ، لأن ترك الذكر أفصح من الذكر ،والصمت عن الافادة أزيد للافادة . وضرب لهذا أمثلة منها قول الشاعر :

شأشكر عمرا ان تراخت منيتى
أيادى لم تمنن وان هى جلت
فتى غير محجوب الغنا عن صديقه
ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

والأصل هو فتى .

وأما حذف المفعول فانه أكثر حسنا ، كقوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون »

اذ المعنى هل يستوى من له علم ومن ليس له علم .

وقد يجب حذف المفعول لتتوفر العناية على اثبات الفعل لفاعله ، مثل قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ماخطبكما ؟ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى الى الظل » .

فقد حذف المفعول فى أربعة مواضع ، اذ المعنى يسقون أغنامهم أو ماشيتهم ، وتذودان غنمهما ، ولا نسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما .

والغرض من هذا الحذف الدلالة على أنه كان من

الناس فى تلك الحال سقى ومن المرأتين ذود ،وأنهما قالتا لايكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى . فأما المسقى سواء أكان غنما أم ابلا أم غيرها فخارج عن الغرض، لأنه لو قيل وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما لجاز أن يكون الانكار منصبا على ذود الغنم لاعلى الذود المطلق .

ثم ينتهى عبد القاهر بعد دراسة مفصلة الى أن حذف المفعول لانهاية لنتائجه ، فانه طريق الى ضروب من الصنعة ، والى لطائف لاتحصى

٣ ــ الفصل والوصل

هو عطف الجمل أو ترك العطف ، وهو من أسرار البلاغة ، حتى ان بعضهم حصرها فيه ، اذ سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، وذاك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لايستكمل خصائصه أحد الا أستكمل سائر البلاغة .

ولقد يكون سهلا اذا كانت الجملة المعطوف عليها لها محل من الاعراب ، اذ يكون حكمها حكم المفرد ، فيكون عطف الثانية عليها كعطف المفرد على المفرد ، فالحاجة الى الواو ظاهرة .

ولكن الضرب الذى يشكل أمره هو أن تعطف على الجملة التى لاموضع لها من الاعراب جملة أخرى ، كقولك العلم حسن والجهل قبيح ، فلا سبيل الى أن الواو أشركت الجملة الثانية فى الاعراب .

ولهذا ينبغى أن تعلم المطلوب من العطف والمغزى منه ، ولماذا لم يستو الحال بين أن تعطف وبين أن العطف .

والاشكال يعرض فى الواو دون غيرها من حروف العطف ، لأن الحروف الأخرى تفيد مع الاشراك فى الاعراب معانى ، مثل الترتيب من غير تراخ مع الفاء ، والترتيب بتراخ مع ثم الخ ، ولكن الواو لامعنى لها سوى الاشراك فى الحكم الاعرابى .

فحينما نقول زيد قائم وعمرو قاعد نكون قد عطفنا الجملة الثانية على الأولى ، ملاحظين أن عمرا له صلة بزيد ، بحيث أن السامع اذا عرف حال الأول عناه أن يعرف حال الثانى .

ولو قيل زيد طويل القامة وعمرو شاعر ، كان خلطا ، لأنه لامشاكلة بين طول القامة وبين الشعر، بل الواجب أن يقال زيد كاتب وعمرو شاعر ، أو زيد طويل وعمرو قصير . واذا كان الاسم المتصل بما قبله مستغنيا عن الوصل كالحال والصفة فكذلك الجملة الثانية قد تكون متصلة بالتى قبلها فتستغنى عن حرف عطف يربطها بها ، كقوله تعالى: « ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » فان قوله لاريب فيه بيان وتوكيد وتحقيق لقوله ذلك الكتاب ، وزيادة تثبيت له ، فهو بمنزلة أن تقول هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب . ومن مسوغات الفصل أن تكون الجملة الثانية عقب ما يقتضى سؤالا ، كقول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة
صدقوا ولكن غمرتى لاتنجلى

لأنه حكى عن العواذل أنهم قالوا هو فى غمرة، وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول فما قولك فى ذلك ؟ وما جوابك عنه ؟

ومن هذا الضرب قوله تعالى : « قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تسمعون؟ قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال ان رسولكم

الذى أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » فان السامع اذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال ومارب العالمين وقع فى نفسه أن يقول فماذا قال له موسى ؟ فأتى الجواب مفصولا غير معطوف .

٤ ــ وتكلم بعد هذا عن موضوعات فى اللفظ والنظم وصفها بأنها تشحذ البصيرة ، وتزيد الكشف عما فى السريرة ، مثل الكلام فى ان والتوكيد بها ودواعيه ، والكلام فى انما ودلالتها على القصر ، ثم تكلم عن القصر والاختصاص .

٥ ــ ثم درس المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية ، معتمدا على نظريته فى النظم ، وأن الأصل فى هذه الألوان البلاغية المعنى لا اللفظ ، وان جرت الصفات على اللفظ لأن العادة جرت على أن يقال فى الفرق بين الحقيقة والمجاز أن الحقيقة استعمال اللفظ على أصله فى اللغة والمجاز ازالته عن موضعه واستعماله فى غير ماوضع له ، فيقال أسد ويراد به شجاع ، وبحر ويراد به جواد . فاذا ماحققنا لم نجد لفظ أسد قد استعمل على القطع فى غير ماوضع له ، لأنه لم يجعل فى معنى شجاع على الاطلاق ، ولكن جعل الرجل بشجاعته أسدا ، فالتجوز فى أن ادعيت للرجل أنه فى معنى الأسد ، وأنه فى قوة قلبه وشدة بطشه ، وهذا تجوز فى معنى اللفظ لا فى اللفظ نفسه .

ويدل على هذا دلالة قاطعة أنهم لايذكرون شيئا من المجاز الا قالوا انه أبلغ من الحقيقة ، فاذا كان لفظ أسد قد نقل عما وضع له فى اللغة ، وجعل يراد به الشجاع غفلا ساذجا ، فمن أين يجب أن يكون قولنا أسد أبلغ من قولنا شجاع ؟
وهذا الحكم نفسه يقال فى الاستعارة وفى التشبيه وفى الكناية والتمثيل ، وقد فصل المقال فى كل منها تفصيلا .

ــ ٤ ــ

لكن عبد القاهر لم يرتب نظريته فى بحوث مترابطة يسلم سابقها الى لاحقه ، ولم يسلك أدلته ووجوه دفاعه فى نسق منسجم يجمع شتاتها ، بل كان كثيرا مايفرغ من الدليل أو من الرد على شبهة ، ثم يعود الى ماكان قد بدا للقارىء أنه فرغ منه من قبل بادئا بالبسملة ، وفى هذا مافيه من تكرير ومباعدة بين الأفكار المتشابهة أو المتآزرة ، فمثلا تكلم فى الاستعارة والمجاز والتمثيل والكناية من صفحة ٥٢ الى صفحة ٦٢ ثم عاد فتكلم عنها ثانية فى تفصيل آخر الكتاب ، وتكلم عن المجاز الحكمى من صفحة ٢٢٧ الى ٢٣٥ ثم عقد فصلا فى الصفحة نفسها وقال هذه مسألة قد كنت عملتها قديما ، وقد كتبتها ها هنا ، لأن لها اتصالا بهذا الذى صار بنا القول اليه ، وليس هذا الفصل سوى صفحة وبعض صفحة ، بعده فصل آخر فى الكفاية والتعريض .

ــ ٥ ــ

ولاشك أن فكرة النظم كانت عقيدة عند عبد القاهر ، فهو لايفتأ يدعو اليها ، ويلح فى الدفاع عنها ، ويفصل المقال ويشققه فى توكيدها ، ويرد على مخالفيه ، ويفترض شبهات شتى يفندها واحدة اثر واحدة ، وان اقتضاه هذا الاعادة والتكرير .

وهو فى هذا كله يمثل بنصوص بليغة من الشعر ويمثل أحيانا بآيات من القرآن الكريم ، ولعله لم يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية لأن غرضه

لم يكن الكشف عن الاعجاز ، بل كان التمهيد لهذا الكشف ببناء الأصل الذى يقيم عليه بحثه في سر الاعجاز . ولهذا قصر مباحث كتابه الثانى « أسرار البلاغة » على تفصيل المقال فى المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية ، وبيان أقسام كل منها .

— ٦ —

بقى أن أشير الى شدته على مخالفيه فى الرأى الى حد التهجم .

١ — يقول : « قد بلغنا فى مداواة الناس من دائهم ، وعلاج الفساد الذى عرض فى آرائهم ،كل مبلغ ، وانتهينا الى كل غاية ، وأخذنا بهم عن المجاهل التى كانوا يتعسفون فيها الى السنن اللاحب ، ونقلناهم عن الآجن المطروق الى النمير الذى يشفى غليل الشارب ، ولم ندع لباطلهم عرقا ينبض الا كويناه ، ولا للخلاف لسانا ينطق الا أخرسناه ، ولم تترك غطاء كان على بصر ذى عقل الا حسرناه » .

٢ — ويقول فى التعليق على قوله تعالى : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » أى لمن أعمل قلبه فيما خلق القلب له من التدبر والتفكر والنظر فيما ينبغى أن ينظر فيه ، فهذا على أن يجعل الذى لايعى ولايسمع ولاينظر ولايتفكر كأنه قد عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به ، كما جعل الذى لاينتفع ببصره وسمعه ولايفكر فيما يؤديان اليه بمنزلة من لاسمع له ولا بصر .

فأما تفسير من يفسره على أنه بمعنى من كان له عقل فانه انما يصح على أن يكون قد أراد الدلالة على الغرض من الجملة ، فأما أن يؤخذ به على هذا الظاهر حتى كأن القلب اسم للعقل كما يتوهمه أهل الحشو ومن لايعرف مخارج الكلام فمحال باطل، لأنه يؤدى الى ابطال الغرض من الآية ،والى تحريف الكلام عن صورته ، وازالة المعنى عن جهته .

ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا فى الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ، فيفسدوا المعنى بذلك، ويبطلون الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة ، وبمكان الشرف . وناهيك بهم اذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه ،وجعلوا يكثرون فى غير طائل ، هناك ترى ماشئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به ،نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق »

— ٧ —

وهذه نماذج موجزة من الكتاب :

١ — قال فى صفحة ٤٢ : « وأوضح من هذا كله هو أن النظم الذى يتواصفه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكرة لامحالة . واذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة، ويستخرج بالروية ، ينبغى أن ينظر فى الفكر بماذا تلبس ؟ أبالمعانى أم بالألفاظ ؟ فأى شيء وجدته الذى تلبس به فكرك من بين المعانى والألفاظ فهو الذى تحدث فيه صنعتك ، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك ، فمحال أن تفكر فى شيء وأنت لاتصنع فيه شيئا ، وانما تصنع فى غيره ولو جاز ذلك لجاز أن يفكر البناء فى الغزل ليجعل فكره فيه وصلة الى أن يصنع من الآجر ، وهو من الاحالة المفرطة »

٢ — وقال فى صفحة ٣٦٤ : « وهكذا السبيل ان زعم زاعم أن الوصف المعجز هو الجريان والسهولة ، ثم يعنى بذلك سلامته من أن تلتقى فيه

حروف تثقل على اللسان ، لأنه ليس بذلك كان الكلام كلاما ، ولا هو بالذى يتناهى أمره ان عد فى الفضيلة الى أن يكون الأصل والى أن يكون المعول عليه فى المفاضلة بين كلام وكلام .. ورأينا العقلاء حيث ذكروا عجز العرب عن معارضة القرآن قاوا ان النبى صلى الله عليه وسلم تحداهم وفيهم الشعراء والخطباء والذين يدلون بفصاحة اللسان والبراعة والبيان وقوة القرائح والأذهان والذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب .. وقالوا ان الله تعالى قد جعل معجزة كل نبى فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم ، وفيما كانوا يتباهون به ، وكانت عوامهم تعظم به خواصهم ، قالوا انه لما كان السحر الغالب على قوم فرعون جعل تعالى معجزة موسى عليه السلام فى ابطاله وتوهينه ، ولما كان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب جعل الله معجزته فى ابراء الأكمة والأبرص واحياء الموتى ،ولما انتهوا الى ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذكر ما كان الغالب على زمانه لم يذكروا الا البلاغةوالبيان والتصرف فى ضروب النظم ..»

٣ ــ وقال فى صفحة ٤١٨ : « فاذا رأوا التنكير يكون فيما لايحصى من المواضع ثم لايقتضى فضلا ولا يوجب مزية اتهمونا فى دعوانا ما ادعيناه لتنكير الحياة فى قوله تعالى : « ولكم فىالقصاص حياة » من أن له حسنا ومزية ، وأن فيه بلاغةعجيبة وظنوه وهما منا وتخيلا . ولسنا نستطيع فى كشف الشبهة فى هذا عنهم ، وتصوير الذى هو الحق عندهم ، ما استطعناه فى نفس النظم ، لأنا ملكنا فى ذلك أن نضطرهم الى أن يعلموا صحة مانقول، وليس الأمر فى هذا كذلك ، فليس الداء فيه بالهين ولا هو بحيث اذا رمت العلاج منه وجدت الامكان فيه مع كل أحد مسعفا ، لأن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها ، وتصور لهم شأنها ، أمور خفية، ومعان روحية ، لاتستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علما بها ، حتى يكون مهيأ لادراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما فى نفسه احساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة، فاذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقعشىء منها وشىء » .

وهذا كلام واضح فى تقدير عبد القاهر للذوق واعتماده عليه ، وصريح فى أن الذوق هبة من هبات الله .

مصادر البحث

١ ــ أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجانى

٢ ــ اعجاز القرآن — الباقلانى

٣ ــ انباه الرواة — القفطى

٤ ــ بغية الوعاة — السيوطى

٥ ــ ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن — الرمانى والخطابى وعبد القاهر

٦ ــ دلائل الاعجاز — عبد القاهر

٧ ــ دمية القصر — الباخرزى

٨ ــ روضات الجنات	الموسوى
٩ ــ شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلى
١٠ ــ طبقات الشافعية	السبكى
١١ ــ عبد القاهر الجرجانى	الدكتور أحمد أحمد بدوى
١٢ ــ فوات الوفيات	ابن شاكر
١٣ ــ كشف الظنون	حاجى خليفة
١٤ ــ مرآة الجنان	اليافعى
١٥ ــ معجم الأدباء	ياقوت
١٦ ــ معجم البلدان	ياقوت
١٧ ــ النجوم الزاهرة	ابن تغرى بردى
١٨ ــ نزهة الألباء	ابن الأنبارى
١٩ ــ وفيات الأعيان	ابن خلكان